

LEADING ARTICLE

CHRISTIAN ARABS: PRESENCE AND CIVILIZATION

العرب المسيحيون حضور وحضارة
سالم سرية/اكاديمي وكاتب (فلسطين)

Abstract

The importance of talking about Christian Arabs stems from the importance of confronting those who try to sow the seeds of division and discord among the sons of Arab Nation and suggest to Christians that these countries are not their homelands for hostile political ends. There are also those who denies the Arabism of Christians, who Ghassanids, the Manathira, and the descendants of the Bakr, Taghlib, Rabia, Nasr, and Tanukh tribes. We reviewed some samples of their civilization giving as they had the main role in refining the Arabic language and establishing the philosophy of modern Arab nationalism. Also we focused on the most prominent role of Christians Arabs in translation, medicine, literature and politics across different eras.

Keywords: Arabs, Christians, Arabic civilization.

الخلاصة

ان اهمية الحديث عن العرب المسيحيين تنبع من اهمية مواجهة من يحاول أن يزرع بذور الفرقة والشقاق بين ابناء الامة الواحدة ويوحي للمسيحيين أن هذه الأوطان ليست أوطانهم لغايات سياسية معادية انها محاولة انتزاع بعض مكونات هذه الأمة من جذورها وأصولها وتاريخها ليزرعوا فيها حالة من الاغتراب عن محيطها. كما ان هناك من يشكك في عروبة المسيحيين الذين هم العساسنة والمناذرة وأحفاد قبائل بكر وتغلب وربيعة ونصر وتنوخ. وبناء على ذلك تناولنا بعض العينات من عطائهم الحضاري حيث كان لهم الدور الاساسي في تهذيب اللغة العربية وتأسيس فلسفة القومية العربية الحديثة كما سلطنا النظر على ابرز الاعلام في الترجمة والطب والادب والسياسة عبر مختلف الحقب.

الكلمات الدلالية: العرب ، المسيحيين، الحضارة العربية.

بداية لابد من القول اني أفضل استخدام تعبير العرب المسيحيين عوضا عن المسيحيين العرب ذلك لان التعبير الأول له بعد قومي بينما التعبير الثاني له بعد ديني . ومع ذلك فان اكثر الدراسات ورسائل الدكتوراه والمؤتمرات قد استخدمت التعبير الثاني. ومع ذلك ساكون مجبرا على استخدامه ادناه.

لقد تمحورت بعض هذه الدراسات حول دور المسيحيين العرب قبل الإسلام منذ القرن الثاني حتى القرن السابع في بلاد الشام والجزيرة العربية (1) . والغرض من ذلك هو التأكيد على جذور عروبة المسيحيين ورسوخهم في التاريخ والجغرافيا— ملوك الغساسنة وملوك الحيرة وامراء كندة ودولة الحميريين في اليمن . حيث اعتنقت معظم القبائل العربية المسيحية بمذاهبها الشتى وقلّة منهم اليهودية وديانات اخرى اضافة للوثنية في سوريا والعراق واليمن والحجاز. وتحدثت دراسات اخرى عن العرب المسيحيين في عهد النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وكيف تعامل معهم ثم حقبة خلافة ابو بكر وعمر وتناولت بعض الدراسات العطاء الحضاري للعرب المسيحيين في العصر الأموي والعباسي والحقبة العثمانية حتى وقتنا الحاضر.(2)

وعبر هذه المراحل التاريخية كان للعرب المسيحيين دورا بارزا في إثراء الحضارة العربية الإسلامية رغم ما عانوه من تكريم في بعض الحقب او تهشيم في حقب أخرى لأسباب سياسية بالدرجة الأساس .

ولكن كيف تم تناول علاقة العروبة بالمسيحية فيما ذكر اعلاه:

1- الرؤية المشرقية: وهي كتابات بعض المسيحيين العرب في لبنان الذين يقفون موقف العداء

المفرط من العروبة ويعتبرون انفسهم مشرفيين وفينقيين وما الى ذلك وهؤلاء هم التيار الإنزالي الذي لاقى فلسطينيو لبنان على ايديهم اقصى انواع العذاب والتنكيل المتواصل منذ نكبة 1948 حتى الان وهم الذين نسجوا علاقات التحالف والود مع الكيان الصهيوني . وهذه الرؤية تشمل بعض العرب المسيحيين الذين ارتموا في احضان فرنسا الكاثوليكية او امريكا وبريطانية الانجليكانيه البروتستانتية او وروسيا الارثوذكسية .

2- الرؤية الاسلامية : وهي الرؤية التي عبر عنها المفكر الإسلامي محمد عمارة والقرضاوي

وغيره من المعتدلين الاسلاميين , وهي رؤية الود والتعايش مع المسيحيين العرب ضمن دولة اسلامية يدعون اليها .(4و3)

3- الرؤية القومية : وتشمل معظم الدراسات المنشورة عن مركز دراسات الوحدة العربية.

نسرده ادناه بعض العينات من عطائهم الحضاري فقط لنحیی ذاکرة كل الاطراف التي تقلل او تلغي دور العرب المسيحيين الذين هم جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي من الامة العربية . فهم الذين هذبوا اللغة العربية وحملوا لواء القومية العربية وانجبوا فكرها وحفروا في صفحات التاريخ العربي بصمات حضارية وفكرية وادبية وثقافية رسخت في الوجدان القومي .

اولا: كان إنجاز المسيحيين العرب كبيرا في عمليات الفتوحات . فقد انضموا إلى الفاتحين المسلمين ضد الفرس والروم وساهما في توسيع حدود الدولة الإسلامية نحو الشرق (جيش تغلب) . وأبدوا وفاء كبيرا لها وأسهموا بتراثهم وخبرتهم وسيطرتهم على أهم الطرق التجارية في تنشيط الدورة الاقتصادية داخل الدولة الإسلامية على المستوى الصيرفي والصناعي والتجاري لذلك أسهم العرب المسيحيون، أعظم إسهام في عملية هضم الحضارات الأخرى وتوطئتها في الوطن العربي اضافة لدورهم في توطئ الثقافتين اليونانية والسريانية ، ولا سيما في مجال الطب والعلوم والفلسفة . ، وكان نصارى الشام من القبائل التغلبيية يشكلون سندا للامويين في الجيش، وفي الاسطول. وبقيت ادارة الدواوين في ايديهم، وسمح الخلفاء والولاة لهم ببناء كنائس جديدة". حتى انه يقال أن النهضة الأموية والعباسية لم تستطع أن تقوم إلا بفضلهم.(5)

ثانيا: تزعم السريان حركة الترجمة من الحضارة الاغريقية إلى السريانية ثم إلى العربية، أي أن اللغة السريانية لعبت دور الوسيط بين اللغتين العربية واليونانية. ويذكر العالم ديمتري غوتاس: "ان حركة الترجمة في صدر الاسلام جاءت نتيجة حماسة علمية لدى المسيحيين الناطقين بالسريانية كما كانوا

يجيدون اليونانية والعربية واشتهرت مراكزهم في الرها وقنسرين ونصيبين والموصل حتى جنديسابور. وكمثال على الهوس الترجمي فان ثاوفيل الرهاوي رئيس منجمي الخليفة هارون الرشيد قد نقل كتابي هوميروس (الاياذة والاولديسا) من اليونانية الى السريانية في عناية وفصاحة". وتزعم حركة الترجمة بلا منازع حنين بن اسحق، ثم يوحنا بن ماسويه، واسحق بن حنين والحجاج بن مطر ويوحنا بن البطريق، وعبد الملك بن ناعمة الحمصي، ومتى بن يونس، وابو علي اسحق بن زرعة، وسواهم العشرات. ان حركة الترجمة للفلسفة اليونانية - ارسطو وسقراط وافلاطون وغيرهم - قد فتحت الابواب لولادة الفلسفة العربية. اي انها شكلت انفتاحا على ثقافة الغرب انذاك ادى الى نضوج الفكر العربي في تعاطيه مع مجمل قضايا الكون والانسان .

ثالثا: اما مجالات الإبداع المسيحيين العرب في بناء الدولة الإسلامية فقد كانت في عدة مجالات، منها مجال التاريخ، حيث واكب المسيحيون العرب المسلمين في تدوين الأحداث منذ الفتوحات وقد أتبعوا أسلوبا خاصا مغايرا للصناعة التاريخية الإسلامية ، لقد كتب المسيحيون فصولا عن قبلهم من موارد تاريخية ورثوها عن أسلافهم ودونوا أحداثا تاريخية عاصروها وأعادوا تنظيمها ، واستعملوا الوثيقة التاريخية المكتوبة التي وصلت إليهم بالإضافة إلى الرواية الشفوية التي ينقلها لهم الآخرون . ان شهر المؤرخين المسيحيين ديونيسيوس التلمحري ومخائيل السوري وابن العبري . إن كتابات المؤرخين المسيحيين أقرب الى التاريخ العام منه إلى التاريخ الخاص ، فهم يستعملون التاريخ الميلادي إلى جانب التاريخ الهجري والتاريخ الإغريقي. ومن هؤلاء المؤرخين: ابن نكايه ، توما المرعي ، الياس النصيبي ، ابن العبري ، يعقوب الرهاوي ، ابن البطريق ، وسعيد بن البطريق كتبوا بالسريانية ، ومنذ القرن الرابع الهجري حدث تطور هام في هذا الشأن على يد المؤرخين الأرثوذكسيين والأقباط إذ عمدوا إلى كتابة التاريخ باللغة العربية وزاد اهتمامهم بالتاريخ الإسلامي على يد سعيد بن البطريق ، ويحيى بن سعيد البطريق وابن المقفع وابن العسال وبولس الانطاكي ومحبوب المنجي وإبراهيم الانطاكي وأبو فتح بن الفضل. ولم تنحصر حياة المسيحيين ضمن العائلة بل انخرطوا في المجتمع الإسلامي وسموا أولادهم حسن وحسين وعلي وخالد ومروان.(6)

رابعا: اسهم العرب المسيحيون في الشعر والأدب والفن إلا أنه لم يصل إلينا من مؤلفاتهم الأدبية إلا المؤلفات الشعرية والحكم لان تراث العربي المسيحي تراث شفهي لم يدون إلا بعد الإسلام ومن أهم شعراء العرب المسيحيين : عمر بن كلثوم ، عدي بن زيد ، الحار بن كلدة، عنترة بن شداد : هو عنترة بن عمرو بن معاوية ابن قراد العبسي ، أمرو القيس، حاتم الطائي ، ميسون بنت بحدل الكلبية ، نابغة بني شيبان، الاخطل التغلبي. ومن ابرز الشعراء المسيحيين في الدولة العباسية : الشاعر " سليمان بن حسن الغزى " . لقد كان للشعراء العرب المسيحيين أثرا بالغا في الأدب العربي والتاريخ العربي الإسلامي، إذ احتوت قصائدهم على إشارات إلى الحوادث التي عاشوها كالحروب بين القبائل العربية والعلاقات الاجتماعية والسياسية بينهم .

خامسا : كان للأطباء المسيحيين العرب تأثيرا في الطب العربي وفي تاريخ الدولة الإسلامية . حيث ان أول مستشفى لدراسة الطب في الدولة الإسلامية كان مستشفى بختيشوع ، الذي أسسه ، في بغداد إبان القرن الثامن ، الأطباء المسيحيون الذين كانوا منذ زمن طويل قائمين على إدارة المستشفى الشهير في جنديسابور . وكانت أول عملية تشريح أجريت في العالم الإسلامي هي التي أجراها في عام 836م ، السرياني يوحنا بن ماسويه طبيب المعتصم . ومن الأطباء المسيحيين العرب قبل الإسلام وأشهرهم على الإطلاق الحارث بن كلدة الثقفي المعروف " بـ طبيب العرب " توفي سنة (635 م) (13 للهجرة) أصله من ثقيف من الطائف . و من الأطباء في الدولة الأموية ، أشهرهم هم : ابن أثال الذي ذكره ابن أصيبعة وأبو الحكم ، فانه " كان طبيبا نصرانيا ، عالما بأنواع العلاج والأدوية ، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة . وكان يستطبّه معاوية ابن أبي سفيان (661 – 68 . م) ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه ثم تبعه ابنه الحكم الدمشقي في المهنة ، وخلف ابنا ، عرف بأبي الحسن عيسى ، وهو المشهور بمسيح ، صاحب الكناس الكبير الذي يعرف به وينسب إليه " وكان في خدمة هارون الرشيد (7886 – 8.9 م) . ومن الأطباء المشهورين في الدولة العباسية على الإطلاق :

جورجس بن جبرئيل ، يقول ابن أبي أصيبعة : ” كانت له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداداة وأنواع العلاج ومن اكثر الأطباء الذين ألفوا كتباً (61 كتاباً) : قسطا بن لوقا . أن قسطا كان بارعا في علوم كثيرة ، منها الطب والفلسفة والهندسة والإعداد والموسيقى .. ، فصيحاً في اللغة اليونانية ، جيد العبارة بالعربية ، توفي بآرمينيا نحو السنة 113 هـ \ 923 م وكان مولده في بعلبك (3).

سادسا : لعب المسيحيون العرب دوراً رائداً في النهضة الثقافية العربية، فكانوا أول من أدخل المطبعة إلى البلدان العربية مطبعة دير قزحيا في لبنان ثم مطبعة حلب عام 1706، وساعدوا منذ منتصف القرن التاسع عشر على نشر التعليم وتأسيس المدارس العربية، فافتتحت الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1866 وجامعة القديس يوسف عام 1875 مما أدى إلى انتعاش الحركة الفكرية، وقد خرّجت المدارس المسيحية عدداً وافراً من أعلام العربية في تلك المرحلة، وقد أسهم المسيحيون في إحياء التراث والأدب العربي، وكان من أبرز أعلام الأدب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومي زيادة. وقد وصف اللغوي الكبير د. عبد الله العلايلي هذه الكوكبة من اللغويين المسيحيين العرب - فارس الشدياق والاب انستاس الكرمللي وناصيف اليازجي وابنه إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني بالقول "إنهم العُمد الجدد للغة العربية، بهم تزهو ويزهون بها. وقد خدموها بكل ما أوتوا من طاقة بحث وتفنيش في جمع المادة وترتيبها، وشرح المعاني وتفنيدها، وفي المحصلة تقديم روافعها تقديماً وافياً ومتجدداً) إضافة الى امين الريحاني وشفيق معلوف وإلياس فرحات، ومن الشعراء والمؤرخين برز إيليا أبو ماضي و خليل مطران ونعمة الله الحاج وعيسى إسكندر وصليبا الدويهي ورشيد سليم الخوري وغيرهم. وبرز في الصحافة جرجي زيدان مؤسس مجلة الهلال عام 1892، ويعقوب الصروف مؤسس صحيفة المقطم، وسليم العنجوي مؤسس «مرآة الشرق»، وإسكندر شلهوب مؤسس مجلة السلطنة عام 1897، وسليم تقلا وشقيقه بشارة تقلا مؤسساً جريدة الأهرام. كما لعب كل - أول من ابتدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربية - دوراً في إعادة استخدام اللغة الفصحى بين العرب في القرن التاسع عشر. أما على صعيد المسرح فقد كان للمسيحيين دور متألق مع مارون عبود ومارون النقاش اللذين ساهما في تأسيس الحركة المسرحية في مصر.

سابعاً: وفي الجانب السياسي برز اعلام كبار مثل ميشال عفلق مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي ومعه مفكرون قوميون الياس فرح و طارق عزيز وكمال ناصر(الشاعر المعروف وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير والذي اغتاله الموساد في بيروت) واديب ناصر وناصيف عواد وكمال فاخوري ونقولا الفرزلي وفيصل عرنكي وهيلاريون كبوجي (الذي كان يهرب الأسلحة لثوار فتح عند انطلاقها بالسيارة الرسمية للكنيسة)، وقسطنطين زريق وجورج حاوي وادوارد سعيد وأنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكرم عبود وفارس خوري الذي شغل منصب رئيس الوزراء في سوريا، وإميل حبيبي وتوفيق طوبي وعزمي بشارة وجورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ونايف حواتمة-امين عام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وحنان عشراوي وفيصل عرنكي (اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية). ومن رجال الدين الذين يقفون بصلافة بوجه الكيان الصهيوني الغاصب بالمطران عطا الله حنا والبطريرك ميشيل صباح والأب منويل مسلم (الذي فتح ابواب الكنائس لحماية أهلنا في غزة اثناء القصف الصهيوني) وحنان عيسى-القيادي في حركة فتح. وغيرهم الكثيرون.(5)

ثامناً: وعلي الصعيد العلمي برز اعلام بارزين في الرياضيات مثل ريمون شكوري وعادل غسان وفي الفيزياء متي المقدسي وماهر سرسم وغيرهم من العلماء العاملين في مركز الطاقة الذرية في العراق

ان العرب المسيحيين هم من اسسوا الفلسفة القومية المعاصرة في اطارها الثقافي (ميشيل عفلق وقسطنطين زريق) طبعاً إضافة الى ساطع الحصري وغيره من المفكرين. ولا يتسع المجال هنا لذكر تضحياتهم بوجه التتريك العثماني حيث انهم كانوا من اوائل الذين نصبت لهم اعواد المشانق في بيروت على يد جمال باشا السفاح إضافة الى مشاركتهم في الثورة العربية الكبرى.(7)

وهكذا كان ولا يزال العطاء الحضاري للعرب المسيحيين يلعب دوره المؤثر والفاعل في حياة الامة وشكل واقعا اجتماعيا وثقافيا وروحيا متعدد الواجه - في العلم والادب والصحافة والفن والمسرح..... الخ. فرض نفسه في مشرق الوطن العربي طيلة أربعة قرون ونيف وخصوصا منذ القرن الخامس حتى الوقت الحاضر.

واخيرا لا بد من القول ان العروبة قومية إيديولوجية لا تصهر من بداخلها بفكر واحد، وتلفظ من أمعائها من لا يقبل الذوبان في هذه البوتقة ابدا . ان التنوع الفكري والثقافي والديني يشكل الجهاز التنفسي للحضارة العربية، وهي تختنق إن ضاق أفقها بهذا التنوع بل أن التنوع هو في أساس العروبة ونشؤها ونهضتها وأن غياب المسيحيين عن مشهديتها، يعني فقدان أهلها القدرة على عيش هذا البعد الحضاري في عروبتهم. وفي حالة نفي اي مكون غير اسلامي في نسيجها القومي فإن ذلك يجعل الحضارة العربية تتحول إلى إيديولوجيا أحادية الجانب، متنكرة لأساساتها وخانقة لأفاقها المستقبلية. ان التنوع يثري ويغني وحدة الامة ونهضتها .

ان العرب المسيحيين هم ملح الارض وجزء حي وأصيل من جذور الامة وعصب رئيسي من تركيبه النسيج القومي قديما وحديثا بعيدا عن منطق الاكثريّة العدديّة في الماضي والاقليّة العدديّة في الوقت الحاضر بسبب الهجرة الى بلاد الغرب (وهذا الجانب سنتناوله لاحقا). انهم عرب اقحاح لهم بصمات حضارية وفكرية وثقافية عميقة في كافة جوانب الحياة العربية وذلك لانهم امتلكوا مقومات علمية وادبية وسياسية انفردوا بها .

المصادر:

- 1- قاشا ، سهيل. صفحات من تاريخ المسيحيين العرب قبل الاسلام. منشورات المكتبة البولسية ، 2005.
- 2- العايب بالحاج صالح، سلوى. المسيحية العربية وتطوراتها من القرن الرابع حتى القرن العاشر. رسالة دكتوراه، جامعة تونس الاولى، 1995، تونس . نشرتها دار الطليعة للطباعة والنشر 1997.
- 3- عبدة، سمير. دور المسيحيين في الحضارة العربية الاسلامية ط-1-2005-دار حسن ملص للنشر.
- 4- عمارة، محمد. الاسلام والاقليات، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003.
- 5- خضر جورج ، الخالدي طريف ، رباط ادمون ، زريق قسطنطين، السيد رضوان السيد ، كوثراني وجيه . المسيحيون العرب : دراسات ومناقشات. الطبعة 1. نشر مؤسسة الابحاث العربية- 1981.
- 6- زريق، برهان. العرب المسيحيون، الطبعة الاولى- دار حوران للطباعة والنشر- دمشق- 2012.
- 7- نصيرات، فدوى احمد محمود. المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر - الطبعة الاولى 2، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت 2009.